

رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَأُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴿[الكهف].

وأحيانا يكون امتلاك حدائق الأعناب سبباً في التباهي بين الناس بدلا من أن تكون سبباً في شكر المنعم، وقد ينصرف فكر صاحب الحدائق إلى الناس وينفق عليهم من باب الرياء والتباهي، ولأن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ولا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه تعالى فإن كل هذا الإنفاق وكل هذا الرياء يذهب أدراج الرياح. ويبين لنا القرآن الكريم صورة لهؤلاء المرائين وما هي نهايتهم. فيقول تعالى في سورة البقرة^(١): ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعُفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

ولو عدنا إلى المجتمع المكسي قبل بعثة الرسول المصطفى ﷺ لوجدنا أن (النخيل والأعناب) كان من دلالات الثراء، ويُقاس غنى الأغنياء بما يملكون من النخيل وحدائق الأعناب؛ ولذا نظر كفار مكة إلى النبي ﷺ بعد بعثته نظرة فيها قصر إدراك، وراحوا يطلبون منه ﷺ خوارق مادية كأن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو تكون له جنة من نخيل وأعناب، وعلقوا إيمانهم برسالته بتحقيق ذلك. والقصة مشهورة وهي: أن زعماء مكة جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لنتفج بها، وفجر لنا فيها ينبوعاً أو نهراً وعيوناً نزرع منها.

(١) تعرضنا لشرح هذه الآية الكريمة عند الحديث عن موضوع (الثمرة) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

